القصة القصيرة عند تيسير سبول

بين النظرية والتطبيق

الدكتور زياد محمد جميل بني عمر

كلية الآداب جامعة جرش، الأردن

Résumé:

Tayssir Sabboul est l'un des principaux auteurs sur la scène jordanienne et arabe; il avait des vues critiques sur la nouvelle de critiques théoriques et pratiques; Le chercheur a noté qu'il existe un accord entre ce qui était dans les opinions de trésorerie et de la créativité dans la nouvelle. Cette recherche souligne l'importance de la critique que l'écrivain possède trésorerie et culturels concepts reflètent profondément positive sur son œuvre littéraire.

الكلمات المفتاحية: القصة القصيرة، النقد، الإبداع، تيسير سبول، الأدب الأردني

نص المقال:

كانت لتيسير سبول آراء نقدية في القصة القصيرة من خلال مقالات نقدية نظرية وتطبيقية، وقد لحظ الباحث أن هناك اتساقا بين ما جاء في آرائه النقدية وإبداعه في القصة القصيرة، بين ما جاء في آرائه النقدية وإبداعه في القصة القصيرة في قصتيه" هندي أحمر" و"صياح الديك".

عرض البحث آراء تيسير سبول النقدية في القصة القصيرة، ثم قام بقراءة تحليلية لقصتيه" هندي أحمر" و"صياح الديك" مثبتا مدى الاتساق والتناغم والانسجام بين آراء تيسير سبول في القصة القصيرة وقصتيه، ولعل هذا البحث يؤكد أهمية النقد وأن يتسلح الأديب بمفاهيم نقدية وثقافية عميقة تنعكس إيجابيا على أعماله الأدبية، وكذلك ترتقي بأدبه بحيث تجعله يكتب أدبا وهو واع لأبعاده وأهميته وجديته، وتعكس الأثر المباشر للنقد في الممارسة الإبداعية.

آراء تيسير سبول النقدية والقصة القصيرة

يعد تيسير سبول من أبرز الأدباء على الساحة الأردنية والعربية،ويكمن تميزه في تنوع نتاجه الأدبي وسويته الرفيعة، فقد كتب في مختلف مجالات الإبداع الأدبي، فكتب الشعر والقصة القصيرة والرواية والمقالة إضافة لممارسته النقد، ففي مجال الشعر صدر له ديوان"أحزان صحراوية" وفي مجال الرواية والقصة، صدرت له رواية يتيمة" أنت منذ اليوم"، ورغم يتمها إلا أنها جعلته في مقدمة الروائيين العرب، وتعد نقطة تحول في مسار الرواية الأردنية والعربية، وكتب سيناريو تلفزيونيا بعنوان" الله يرحمهم" إضافة لقصتين قصيرتين، الأولى بعنوان" هندي أحمر" والثانية بعنوان"صياح الديك".

أما مواقفه النقدية في القصة والرواية فتراوحت ما بين النظرية والتطبيقية، فتناول بالنقد والتحليل الكثير من كتاب القصة القصيرة والرواية،فكتب عن :-

- اختلاط الحدود بين الرواية والشعر.
- الكبار والصغار، مجموعة قصصية للكاتب المصري محمد البساطي.
- مع نجيب محفوظ في مجموعته (تحت المظلة).

- مع نجيب محفوظ في رواية (بداية ونهاية).
- النداّهة مجموعة قصص للدكتور يوسف إدريس.
- موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح (عرض وتحليل).
- العار : فيلم ضد الحرب يخاطب العقل ويخضع الكاميرا للرؤيا.
- المحاكمة – فرانز كافكا.
- سيمون بتحدث عن فنه الروائي.

آراؤه النقدية في القصة القصيرة :

كتب تيسير سبول ثلاث مقالات نقدية تطبيقية حول القصة القصيرة، المقالة الأولى كانت حول مجموعة (الكبار والصغار) لمحمد البساطي. أما الثانية فكانت مع نجيب محفوظ في مجموعته القصصية (تحت المظلة) والثالثة كانت حول (النداّهة) مجموعة قصص ليوسف إدريس.

سنحاول من خلال القراءة المتأنية والدقيقة لتلك المقالات أن نستخلص ونتعرف على الأسس النقدية التي يعتمدها تيسير سبول في حكمه على القصة القصيرة سواء من حيث المضمون أو الشكل، والأسس الفنية والجمالية ووظيفة القصة كأدب.

والبداية ستكون مع مقالته حول مجموعة البساطي (الكبار والصغار) يبدأ مقالته بالحديث عن المدرسة الواقعية في الأدب والفن " الواقعية في الأدب والفن أكثر المدارس إثارة للجدل والخلاف ما بين آراء تود توسيع حدودها لتشمل كل الاتجاهات. وتلك هي الواقعية التي لا تعرف الحدود،وما بين اتجاهات شديدة

التطرف لا ترى في الادب والفن إلا جانبه الوظيفي الاجتماعي فتصل إلى مفاهيم ميكانيكية جامدة. وما بين هذين الاتجاهين تبرز أزمة الأدب الواقعي"[1].

وفي هذه المقدمة البسيطة، يطرح سبول قضية كبيرة كانت مصدر خلاف حتى بين أنصار الواقعية أنفسهم، فمنهم من يرى الواقعية التقليدية التي حولت الواقعية إلى مفاهيم ميكانيكية جامدة. ومنهم من يؤمن بالواقعية بلا حدود، وهذا ما كان يؤمن ويدعو إليه سبول" ولكن الواقعية لن تعني عند أي دارس جاد تصويرالواقع بحذافيره، بل تعني بالتاكيد إعادة تصوير الواقع وإعادة ابتكار"[2].

يبدأ سبول بهذه المقدمة ليبين أن القصة الجيدة هي القصة الواقعية التي تستطيع الانفكاك من الجمود والميكانيكية للانطلاق ضمن الواقعية بلا حدود وبلا ضفاف" وتساهم هذه المجموعة مساهمة جيدة في محاولة الخلاص من بين فكي أزمة الواقعية كما أشرنا فك الجمود والميكانيكية وفك عدم التحديد وتداخل كل المدارس الأدبية"[3].

ويرى سبول أن القصة الجيدة – أيضا – هي التي تتخذ من مشكلات الإنسان العربي مادتها وليس الإنسان فقط، بل الإنسان في العالم الثالث، فهو بذلك يتخطى الواقعية المحلية لتشمل الواقعية الإنسانية، فهموم الإنسان العربي والإنسان في العالم الثالث هموم مشتركة. " تتخذ هذه المجموعة من مشكلات الإنسان العربي بل ومشكلات الإنسان في العالم كل مادتها الصريحة"[4].

ويرى أن القصة (الموضوعية) هي القصة التي تبتعد عن الإغراق في الذاتية المغلقة والتي تعبر عن هموم المجتمع" وبهذا ميّز محمد البساطي نفسه عن عدد كبير من كتاب جيله الذين تدور قصصهم في إطار الذاتية المغرقة والمغلقة التي لا

تتصل بهموم المجتمع إلا بقدر ضئيل لا يكاد يلحظ. من هذه الرؤية نستطيع أن نطلق على مجموعة محمد البساطي وصف (الموضوعية) بجلاء"[5]. وهذا يذكر بقول فلوبير" إني أعتقد انّ الفن العظيم موضوعي وغير شخصي، وإني لا أريد حبا وكراهية، لا شفقة ولا غضبا. ألم يئن الأوان بعد ليحتل العدل مكانه في ميدان الفن ؟ إن نزاهة الوصف عندئذ يصبح لها جلال القانون"[6] ويرى أن القصة يجب ان تعبر عن هموم الإنسان ومشكلاته بجميع فئاته لا أن تقتصر على المثقف في المدينة.

ونجد سبول في هذه المقالة يقف مع الرمز الشفاف، ورمزية العالم النفسي ولكن هذا العالم النفسي انعكاس للأوضاع الخارجية" ويصور لنا الكاتب من خلال صور حيه بسيطة الآلام الداخلية التي تعتلج في نفس هذه المرأة ذات المظهر الخشن، فإذا بها تنطوي على أرق عواطف الأم وأحزانها"[7].

ويقف سبول مع النهايات المفتوحة فهي خاتمة القصة الجيدة، ويرى أن النهاية المفتوحة تنم عن مغزى عميق فهي تترك القارئ يعايش المشكلة ويحس بها فالنهايات السعيدة تضعف العمل الأدبي، ولعل في ذلك إشارة لوظيفة الأدب وهي جعل القارئ ودفعه للإحساس بالمشكلة وعدم تركه يتخبط" هذه النهاية مفتوحة لها مغزى عميق فهي لا تريد أن تحل نهاية القصة بالعثور على الولد ليتنفس القارئ الصعداء راحة على مصيره ومصير أمه، بل تترك القارئ ليستمر في معايشة المشكلة، فالمشكلة أعمق من أن تكون حادثة ضياع الولد، إنها مشكلة هؤلاء الناس الفقراء المساكين بكل ما ينطوي عليه من عواطف إنسانية معذبه"[8].

ومن الناحية الفنية يركز سبول على أهمية التركيز والإيجاز والتكثيف مع البساطة والعمق وفي الوقت نفسه، ولكن البساطة لا تعني المباشرة والسطحية، بل

هي مشحونة بالقوة والعمق" البساطي فنان واع لأدواته الفنية، الواقعية لديه تنسجم بالإيجاز العميق المعبر فهو

يبتعد عن كل استطراد يميع كثافة الجو القصصي لديه. يمسك بالشريحة التي استقر عليها اختباره ويدرسها جيدا ويصفيها من الزوائد غير المهمة، ويدير بين شخوص قصصه حوارا قصيرا بسيطا في ظاهره ولكنه مشحون بالقوة. وقد استفاد الكاتب من خصائص الجملة القصيرة إلى حد ممتاز"[9].

ويرى سبول أن على الكاتب الإفادة من التقنيات الحديثة في فن القصة، مثل الإفادة من فن السينما التقاط الصور وتوظيف المنولوج الداخلي. " وقد استفاد الكاتب من فن السينما بطريقة التقاط الصور الجزئية وتنسيقها وربطها. فيضعك مدة في عيني بطل القصة ويريك المتطورات من جلاله، ثم يريك البطل في عيون الآخرين. والمنولوج الداخلي في قصصه يشبه لقطات استعادة الماضي في السينما. [10]"

ونجد سبول – في نهاية هذه المقالة – يضع شروط القصة القصيرة الناجحة فهو ضد أدب الوعظ والإرشاد والمباشرة والتقرير، ويرى أن شروط القصة القصيرة تكمن في العمق والواقعية والنزعة الإنسانية" هذه العناصر الفنية التي استفاد منها البساطي بقدرة وهدوء جعلت من قصصه أدبا واقعيا ليس بالنقل الفوتوغرافي عن الواقع بل باصطفاء وابتكار جديد للواقع. لم يقع الكاتب في قصص من قصصه بالمباشرة. لم يلق موعظة ولم نسمع صوته الذاتي – بل ترك للنماذج الحية التي اتفق تصويرها في الواقع أن تحمل لنا رؤياه واتصاله الحميم بمشاعر الناس البسطاء. وهكذا تحقق الكاتب أن يقدم قصصا إنسانية وواقعية عميقة. وفي الوقت ذاته أدبا رفيعا"[11].

أما المقالة الثانية التي سنقف معها فهي"مع نجيب محفوظ في مجموعته (تحت المظلة)" يبدأ سبول مقالته هذه بالتركيز على المرحلة التي كتبت فيها المجموعة، فهي كتبت بعد نكسة حزيران عام 1967.ليبين لنا أهمية المرحلة التي كتبت فيها وانعكاسها على أدب نجيب محفوظ فقد أدت به هذه المرحلة إلى الابتعاد عن الواقعية والميل نحو التجريد والرمزية، والأديب الحق هو الذي يطور نفسه بما يتلائم والأحداث والظروف والمراحل التي يمر بها مجتمعه" فالمرحلة الواقعية من قصص نجيب محفوظ والتي توجت بثلاثيته الشهيرة كانت بداية في طريق التطور. نستطيع القول بأن سمته الأساسية تكمن في الابتعاد عن الأسلوب الواقعي في القصص شيئا فشيئا، والميل نحو الرمزية بتسارع يكاد يكون منتظما"[12].

ونجد سبول في هذه المقالة – كما في مقالة البساطي – يركز على أهمية العمق والتركيز والبعد عن المباشرة" هو في هذه المجموعة يهمل طريقة السرد والتسجيل ويعرض عن حشد الجزيئات والتفاصيل الدقيقة ذلك لأنه يريد أن يلمس سطح الواقع الذي تجري عليه الأشياء. وإنما يرتفع في إدراكه وينأى في تصوره حتى يصل بالأشياء إلى التجريد"[13]. فالدافع كما في البداية إلى هذه الرمزية والتجريد هو طبيعة المرحلة التي كتبت فيها هذه المجموعة، فبعد هزيمة حزيران اختلطت الأشياء،وتداخلت الأمور فلم يعد هم نجيب محفوظ تصوير الواقع بل تقديم رؤاه المركبة" في هذه المجموعة يكتشف أن نجيب محفوظ قد اتجه إلى أبعاد جديدة في القصة. فهو غير معني بتطوير الواقع بقدر ما هو معني بتقديم رؤاه المركبة التي تتألف من الصور لا تعبر عن منظور مألوف بقدر ما تعبر عن حالة تختلف فيها الأشياء"[14].

ويأخذ تيسير سبول على نجيب محفوظ إغراقه في التجريد، ولهذا يرى انه لابد أن يعود إلى الواقع" إلا أن نجيب محفوظ يبدو وقد اندفع بعيدا جدا عن عالم الواقع في هذه المجموعة وتحولت قصصه إلى طلسم غامض جدا بعض الأحيان، ونحن ننتظر الخطوة الثانية من نجيب محفوظ ونعتقد أنه سيضطر إلى العودة من جديد إلى مخاطبة الواقع بأسلوب اقل تجريدا"[15].

والمقالة الثالثة هي" النذّاهة مجموعة قصص للدكتور يوسف إدريس". بين سبول في هذه المقالة الرؤيا التي تقدمها القصص ما بين الدراسة الاجتماعية والأطروحة الفلسفية، ويرى أن براعة يوسف إدريس تتجلى في القصة الاجتماعية أكثر منها في الفلسفة، ويرى أن قصة (النذّاهة) هي قمة نجاح المجموعة، ويرى أن يوسف إدريس قد برع في استخدام أسلوب السرد بما يدل على أن هذا الأسلوب ما زال قادرا على حمل المضمون العميق والدقيق" على أن قصة النذّاهة هي كما قلنا قمة نجاح المجموعة. وقد أظهرت براعة المؤلف فيها لأن أسلوب السرد المألوف قادر بعد على حمل المضمون العميق الدقيق وليس بالضرورة مجرد عثرة في طريق هذا الاستبطان"[16].

وتصور قصة النذّاهة العلاقة الصعبة بين المدينة والريف،" وذلك النداء الغامض الذي يتحرك في عروق ساكني الأرياف ويشدهم نحو المدنية"[17].

وفي هذه المقالة إشارة تتكرر – كما في المقالات السابقة – إلى أن القصة الجيدة هي القصة التي تتسم بالعمق والواقعية.

اتضحت – فيما سبق – آراء تيسير سبول في القصة القصيرة، وتم معرفة مفهومه للقصة القصيرة ووظيفتها وشروطها الفنية، وبعد هذا العرض، سيقف هذا المحور مع إنتاجه في القصة القصيرة.

ويلاحظ أن إنتاجه في القصة القصيرة قليل جدا، فليس له سوى عملين هما :"هندي أحمر" و"صباح الديك"، ولعل مرد ذلك إلى ما عرف عنه من محاسبة شديدة، بل وقاسية لأعماله الأدبية؛ إذ كثيرا ما كان يحرق ما يكتب. ويمكن أن نفسر قلة إنتاجه أيضا بسبب انشغاله – في الفترة الأخيرة – بالدراسات والنقد. ويضاف إلى ذلك أن توجهه لفن القصة كان متأخرا بعد هزيمة حزيران عام 67 والبداية كانت مع رواية" أنت منذ اليوم".

هذا التحول والتوجه من الشعر إلى القصة يحتاج إلى وقفة تأمل للوصول إلى تعليل لذلك وربما يكمن سبب هذا التحول في أن تيسير سبول وجد نفسه بعد 67 محتاجا إلى فن أكثر قدرة على التعبير عن طبيعة المرحلة وما كانت تحمله من إشكاليات وتداعيات وبشكل أكثر واقعية وأكثر بعدا عن الذاتية فتحول إلى فن القصة ؛ لأن الشعر حتى وإن كان واقعيا. فهو يميل إلى العواطف والذاتية، كما أن المساحة في القصة أوسع وأرحب للتعبير عما يجول في نفس الكاتب وأكثر تعبيرا عن الواقع بجميع أبعاده وعلاقاته المتشابكة.

قصة " هندي أحمر"

نشرت أول مرة في مجلة الجامعة عدد حزيران وتموز عام 1968، وأعيد نشرها ضمن الأعمال الكاملة عام 1980.

وهي متوسطة الحجم، شغلت في الأعمال الكاملة الطبعة الثانية ست صفحات ونصف الصفحة من القطع المتوسط يغلب عليها الحوار مع أن السرد والوصف بارزان فيها.

وتحكي قصة شاب أردني خدعه بريق الحياة الغربية وبقي حلمه منذ الطفولة أن ينغمس في تلك الحياة، وقد ورث هذا عن والده الإقطاعي الذي كان يصحبه معه إلى العاصمة ويشاهد معه أفلام الهنود الحمر، وكان الوالد يقوم بحركات بهلوانية يشجع فيها البطل وتنم عن سذاجة واضحة" أيوه أيها النشمي يصرخ أبي قائلا :– عفية عليك. أخو أختك. والبطل يجندل الهنود واحد تلو الآخر. – أخسوا. . أخسوا"[18] وكان الوالد يعد ابنه بتزويجه من أمريكية ولكن الله لم يمد في عمره" إذ دق الله عنق أبي في عهد ميلاده المئوي الأول"[19].

وورث هذا الشاب تركة أبيه الكبيرة وتوجه نحو بيروت ليحقق حلمه، وأول خطوة قام بها هي محاولة تعلم اللغة الأمريكية، ولكنه لم يفلح بذلك" مسيو. لا تغلب حالك. عمرك ما تتقن لغات أجنبية"[20]. ونلتقي بعد ذلك بالدكتور محمد سميث في صالة سينما في بيروت ولكن الفلم – هذه المرة – ليس عن الهنود الحمر، بل عن الكوريين الصفر، ويعيد حركات والده التي ورثها عنه" استمرارا بتقاليد الأسرة ورحت أصدر تلك الأصوات وألوح شاتما محذر، وأتهدد الكوريين بسوء العاقبة"[21]. ويصبح الشاب صديقا للدكتور محمد وزوجته بعد شجار" ربَّ صداقة حميمة بعد شجار"[22]، ويجلس معه، ومع زوجته وصديقتين لهما ويدور حديث بينهم لا يخلو من سخرية وفكاهة وإيحاءات كثيرة، ولكنه ينتهي بغضب شديد من قبل الشاب عندما يكتشف وجهة نظرهم به وبقومه، فهم مجرد غوريلا ومتوحشون، بعد ذلك يلوح له والده وهو في جهنم ويخبره عن رئيس أميركا في جهنم والذي يطالب برئاستها. في النهاية

يقرر الشاب العودة إلى وطنه، بعد أن يصحو من غفلته ويكتشف الغرب على حقيقته المتمثل بأمريكا.

وأول ما يلفت النظر في هذه القصة هو العنوان" هندي أحمر" عنوان يحمل إيحاءات فمجرد أن نسمع" هندي أحمر" أو الهنود الحمر تقفز للذهن أمور كثيرة، مجتمع مندثر انتهى بالتصفية العرقية، أميركا وعملياتها الوحشية ضد الهنود الحمر من أجل تصفيتهم وإبادتهم فالهنود الحمر أصبحوا رمزا للإنسان المستضعف والمظلوم والمقهور، والأمريكان مرتبطون بالظلم والاستبداد وقهر الشعوب.

وفي الوقت نفسه قد يوحي" هندي أحمر" – أيضا – بالتخلف والبدائية والوحشية وهذا بفعل الإعلام الموجه الذي صورهم من خلال الأفلام وغيرها بهذه الصورة.

واختيار سبول لهذا العنوان جاء ليوظف كل هذه الدلالات ويكشف ما ترمي إليه القصة منذ البداية.

فبطل القصة يرمز فيه سبول إلى كل إنسان عربي بسيط وساذج ينخدع بالأمور البراقة والزائفة ويجري خلف السراب منبهرا، ولكن البطل في النهاية يعود إلى صوابه بعد أن يكتشف الحقيقة، والبطل هو أيضا ضحية ومستضعف هو" هندي أحمر"، فالجميع ضحايا لأميركا سواء أكانوا عربا أم هنودا حمرا أم كوريين صفرا.

وقد أراد أن يؤكد سبول – من خلال بطله – أن أي عملية تقرب من أميركا هي عملية محكوم عليها بالفشل ولا يمكن أن يتحقق هذا التقارب ؛ لأنهم وإن خدعونا بمظاهرهم البراقة وانطلت علينا ألاعيبهم، ستظهر وتتكشف نظرتهم نحونا وهي أننا

متوحشون ؛مما جعل سبول يُفشل بطله في تعلم لغتهم، تأكيدا على فشل التواصل والتقرب منهم.

وأكد سبول – في هذه القصة – نظرة الأمريكان للعرب والمسلمين على أنهم غوريلا ومتوحشون، تلك النظرة التي بقيت في الخفاء غير معلنه بشكل واضح حتى أصبحت – في أيامنا هذه معلنة، بل رمزا للعرب والمسلمين وهي مسألة" الإرهاب".

وتوحي القصة بأن أي علاقة مع الأمريكان هي علاقة آثمة ومصير أصحابها هو النار؛ لذلك نجد سبول قد وضع والد بطله في النار مع رئيس أميركا.

ويجب عدم نسيان أن هذه القصة كتبت عام 68، أي في عام أجواء هزيمة حزيران ويبدوا أن سبول" كان يدفع بالقارئ لاتخاذ موقف العداء ضد أمريكا"[23].

ويلاحظ في هذه القصة أن جو السخرية والفكاهة يسودها، وقد حقق سبول هذا من خلال الحوار بين شخصيات القصة وربما لجأ سبول إلى هذا الأسلوب لأنه أراد أن يسخر ويمسخ كل من ينخدع بالإعلام الأميركي، أو يحاول التقرب منهم. ويلجأ لهذا الأسلوب الساخر تنبيها للوعي العام من أجل إثارة النقمة وزيادة في التفاعل والتأثير.

وهذه القصة واقعية ترجمت واقع الإنسان العربي ومشكلاته والإنسان في العالم الثالث (كوري أصفر)، بل لقد تعدت ذلك إلى (الهندي الأحمر). والواقعية في هذه القصة ليست واقعية تقليدية حرفية بل واقعية فيها ابتكار.

ونجد توظيف الخيال الخلاق خلال الحوار الذي يجريه بطل القصة مع والده متخيلا إياه في جهنم، ويأتي هذا الخيال ليخدم الرؤية. ويبرز كذلك الرمز

الشفاف – منذ البداية – من خلال العنوان (هندي أحمر)، وكذلك في عدم مقدرة البطل على تعلم اللغة.

نجد هذه القصة قد ابتعدت عن الإغراق في الذاتية فهي تعبير عن هموم المجتمع، ومن الناحية الفنية – أيضا – نجد القصة تتميز بالتركيز والإيجاز والتكثيف مع البساطة والعمق في الوقت والعمق في الوقت نفسه ؛ بحيث لا تصل إلى حد المباشرة، فمثلا نجده يستخدم كلمات عامية من اللغة المحكية مثل" أيوه النشمي، عفية عليك، أخو أختك، أبضايات" ولكن هذه الاستخدامات جاءت لتخدم العمل وتؤدي وظيفة دلالية معينة.

فهي تخدم الحدث وتتناسب مع نسيج القصة بشكل عام لأنه" إذا كانت لغة الوصف يجب أن تكون مطابقة للغة التي تفكر الشخصية وتتكلم بها. فمن غير المعقول في القصة على الإطلاق أن يجعل الكاتب شخوصه تتكلم بمستوى لغوي واحد"[24].

واستطاع سبول – من خلال القصة– أن يقدم وجهة نظر ويدفع القارئ لمشاركته في وجهة النظر هذه، وهي كره أمريكا وبيان حقيقتها المتمثلة في الظلم والاستبداد وكذلك تعرية إعلامها الزائف.

وبالعودة إلى آراء تيسير سبول النقدية في الأدب بشكل عام وفي القصة القصيرة بشكل خاص – التي تم ذكرها سابقا – نجد أن قصة" هندي احمر" جاءت متسقة ومنسجمة مع الآراء فقد بينا في عرض وتحليل هذه القصة كيف أنها جاءت قصة واقعية مبتعدة عن الذاتية ومعبرة عن هموم ومشكلات الإنسان والمجتمع، بل تعدت الواقعية المحلية وبذلك حققت الموضوعية، كما أنها امتازت بالتركيز والإيجاز

والبساطة والعمق مستفيدة من الرمز الشفاف الذي هو رمز شفاف لأنه يتوجه بأدبه إلى قراء غير متجانسين وليسوا من النخبة كل البعد القصيرة بل جمهور عريض. وهذا ما كان يدعو إليه سبول في آرائه النقدية.

قصة" صياح الديك"

أما قصة" صياح الديك" فقد كتبها تيسير سبول ولم تنشر إلا بعد مماته من الأعمال الكاملة، وكان قد أرسلها للنشر إلى بيروت لصديقه" حليم بركات" ثم طلب منه عدم نشرها.[25]

وتقع القصة في ست وعشرين صفحة من القطع المتوسط وهي طويلة نسبيا، وقد كتبت هذه القصة بعد روايته" أنت منذ اليوم"[26].

وتتحدث القصة عن سجين يخرج من سجنه بعد مدة طويلة ويستقبله لحظة خروجه صديق قديم له (عثمان) وتوحي الأحداث أنه كان صديقا له في السجن. وتصيب الدهشة السجين ؛ إذ يلحظ التغير الذي طرأ على صديقه، فأثار النعمة تبدو عليه فأصبح يملك سيارة وبيتا وزوجة جميلة. ويصدم السجين التغير الذي طرأ على المجتمع من حوله.

ويصطحب عثمان صديقه السجين إلى منزله ويبدو أن السجين ذهب مرغما معه لأن الوقت متأخر، وتصفح السجين صحيفة فيلحظ مدى القلاقل والفتن والقتل الذي يسود العالم فيزداد نفورا من هذا العالم ويزداد انقباضا[27] ويدخل السجين منزل صديقه حاملا حقيبته التي تمنى لو تركها بالسجن، ويتعرف على غادة زوجة عثمان وتبدأ عيونه باختلاس النظر إليها واصفا جمالها" أسنانها الصغيرة البيضاء وبؤبؤا عينيها ثقيل السواد وهو مرهق بالتأكيد. ليود أن يسمي لون بشرتها لولا هذا

الإحجام الذي يتولاه وعيناه تبدآن المسيرة على امتداد ذراعها.
..أن منيت كتفها يصب مرة واحدة في بئر فستانها الأسود. وعندما تحركت قليلا رأى مطلع استدارة أكثر تألقا ببياضها، ثم تلك الأضمومة من شعيرات قصيرة غامضة الضلال"[28] وستتضح أبعاد هذا الوصف لاحقا.

ويتناول السجين الطعام، ويبدأ بوصف بطل الوجبة" الديك" ويصفه وصفا كله دلالة وإيحاء، وأثناء تناول الطعام وبعده يدور حديث بين عثمان وصديقه مؤكدا فيه عثمان – بحكم تجربته – أن السجين يخرج مهموما ثم سرعان ما ينسى، ويسهب في حديثه عن شركة التأمين التي يعمل فيها. بعد ذلك يخلد السجين إلى النوم وتبدأ باجتياحه الكوابيس والأحلام ولم يستطع النوم إلا مع بزوغ الفجر ولم يصح إلا مع نقرات الباب وإطلالة وجه غادة عبر فتحة الباب ويسأل عن عثمان فتخبره أنه ذهب لشركة التأمين، ويدور حديث بينه وبين غادة ويستفسر عن سبب ضعف ابنها مقبل فتجيبه بأن حليب السوق ربما لا يلائمه؛ لأن والده يريد ان يوفر حليبها ثم يدخل الحمام محاولا لأن يهتدي إلى درجة الحرارة المناسبة للماء، ولكنه لا يستطيع ويفشل في ذلك فيجفف جسمه المبلول وبعد خيبة الأمل هذه يعود ليلبس ملابس عثمان المستعارة والتي لا تناسبه وتزيد من حزنه. ويخرج من الحمام فيجد غادة قد أعدت له الإفطار فيتناول الطعام بصعوبة وعدم شهية، ويدور حديث مع غادة وتحاول التقرب منه وتسأله عن سبب همومه وتمد يدها إليه فيشعر بالدفء الذي يريده، وفي غمرة الشعور بالدفء يحاول أن يقبل يدها ولكنها تسحبها قبل أن تلامس شفتيه، ثم بعد ذلك يحاول تقبيلها وتنتهي العملية باضطراب شديد يحاول بعده إعادة توازنه وشعر أنه كالديك يحبس صيحته المجهضة. ويعود ليستذكر الأحداث منذ خروجه من السجن التي أدت به إلى هذه اللحظة. ويتذكر حقيبته ويسأل عنها وتخبره غادة أن لا شيء فيها مهم ويشعر بالخزي لأنها اطلعت على ما

فيها ويغضب لأنها فتحتها دون إذنه وتعتذر إليه وعندما ترى حالته تضمه محاولة الاعتذار وتعد له القهوة، ويعاود الحديث معها لينتهي الأمر بلقاء حميم.

تمت الإشارة إلى دلالة العنوان في القصة" هندي أحمر" ونحاول الآن الوقوف على دلالته في قصة" صياح الديك".

صياح الديك مرتبط بذهن الإنسان بالتنبيه بشكل عام وبشكل خاص يومئ ببزوغ فجر جديد، وكلمة صياح – مفردة – توحي بصرخة احتجاج، وكأن صياح الديك صرخة احتجاج على الظلام ودعوة لبزوغ فجر جديد، وهذا يتناسب وفكرة القصة ورؤيتها التي تتمثل في تبيان حالة الكبت والقمع التي يعيشها الإنسان العربي، وكذلك رفض القيم المادية والاستهلاكية التي صدرها الغرب وجعل الإنسان العربي يلهث ورائها، فباع قيمه من أجلها وأصبح عبدا لها.

واختيار سبول "صياح الديك" عنوانا للقصة ما هو إلا صرخة احتجاج على منظومة القيم الاجتماعية بجميع مستوياتها وهو ما زال تحت تأثير" أنت منذ اليوم"، وتحت تأثير هزيمة 67. ولكن عندما نسبر أعماق القصة نجد أن صرخة الاحتجاج هذه" صياح الديك" مكبوتة لأن الأفواه مكممة وبطل القصة السجين ما هو إلا الديك نفسه، والدلالات والإشارات على أن الأفواه مكممة، والصرخة مكبوتة مبثوثة في أرجاء القصة" يشرئب عنقه قليلا لينتهي مطأطئا، في نهاية ما يزال معلقا مدفون المنقار في المعكرونة الطرية "[29]،" ديك مهيض الكرامة"[30].

وحتى عندما وصف الطفل (مقبل) ابن عثمان نجده يقول" وجهه نحيل متطاول ولسانه متدل يغلق فمه الباهت"[31]. حتى الجيل الجديد أو الأطفال يولدون وأفواههم مكممة. والسجين في أحلامه يركز على الصوت والفم" عثمان يعاينه

بحركات بهلوانيه وضحك صامت"[32]."لم يستطع أن ينادي، راح يمأمئ محاولا أن يجد منفذا ولسانه الضخم يحتبس الصوت لوح بيده وأشار إلى فمه فاختفت المرأة دون أن تحس به"[33]، " فتح السجين فمه ودفع الطبيب الحقنة في لثته السفلي اخترقها. .. رفع السجين إصبعه ليوضح انه مستعد لأن يقول قصة حياته، يلحف يمد إصبعه ولا يستطيع كلاما. .. وهو يصرخ دون صوت. ."[34].

القصة صرخة احتجاج على اختلال منظومة القيم الاجتماعية الزائفة، وهي استمرار لصرخات الاحتجاج التي سمعناها في"أنت منذ اليوم"[35]. والحياة مع القيم الزائفة أصبحت مستحيلة ولا يمكن أن يتأقلم معها أي والحياة مع القيم الزائفة أصبحت مستحيلة ولا يمكن أن يتأقلم معها أي إنسان سوي وصاحب مبدأ؛ولهذا نجد المشهد الأول بهذه القصة السوداوية والكآبة؛ ليوحي أن هذه الحياة الجديدة لا يمكن للسجين أن يتأقلم معها" لم يطمئن لهذا الشحوب الذي يغلل وجه الفضاء. لون رمادي لا يساعد على وضوح الرؤية، . ..وتمهد ضلالا باهتة طويلة فبدأ المنظر بجملة غير حقيقي أشبه بلوحة طبيعية كئيبة"[36].

وكل ما جاءت به القيم الاستهلاكية الجديدة والوافدة، المتمثلة بالقيم المادية المستوردة من الغرب وقد أثرت على العلاقات الاجتماعية وسيطرت على تعاملاتهم، كما أن الإنسان العربي أصبح يلهث خلف المواد الاستهلاكية التي أغرقه فيها الغرب، فأصبح عبدا لهذه المواد وكلها مزيفة ولم تستطيع أن تبدد الظلمة" أما حين رفع عينه إلى الجبال المليئة بالبيوت والتي أضاءت أزرارا كهربائية فقد شعر ان الغلبة للظلمة وان تلك الأزرار تجاهد بيأس في وجه العتمة الوافدة"[37]. وأصبحت صورة الحياة صورة منفرة، العالم يسوده القتل والدمار" ثمة كثير من القلاقل في الدنيا، ولإيضاح ذلك ها هنا صورتان عن قتلى وجرحى إنه يزداد انقباضا"[38].

لقد أصبح الناس عبيدا لهذه القيم الزائفة والمظلمة ولو أن شمس الحرية أشرقت لكان غير ذلك" لو أن الوقت صباح إذن لكان كل شيء أفضل، في الصباح ثمة فسحة للتفكير والتدبير .بدل أن يقاد هكذا بقسر"[39].

الديك في هذه القصة رمز للإنسان العري المفلوب على أمره إنه الضحية مكمم الفم مكبل بالسلاسل والحبال مهيض الكرامة واختيار المعكرونة فيه دلالة أشبه بالحبال" وتحف المعكرونة بجسد الديك من كل جانب"[40]. والسلطات الخضراء والحمراء وغيرها ماهيه إلا القيم الاستهلاكية الجديدة التي أصبحت أيضا تكبل الإنسان العربي. والديك أو الإنسان العربي على استعداد للتضحية بنفسه شريطة أن يكون لهذا معنى.

والسجين لم يستطع التأقلم مع هذه الحياة الجديدة بدليل أنه لم يحصل على درجة الحرارة المناسبة" من أين له أن يعرف درجة الحرارة 37 مئوية هي تماما ما ينشده وهب أنه عرف ما الفائدة ؟ إنه لم يصطنعها في هذا الحوض مهما حاول"[41].

حقيقة السجين ما هي إلا الحياة السابقة التي أصبحت ذات مظهر مزري وخاوية وتمنى لو أنه تركها في السجن لأنها لم تعد مناسبة في الزمن ؛ولذلك نجده قد استشاط غاضبا عندما عرف أن غادة قد فتحتها.

وعثمان يمثل الإنسان الذي باع مبادئه وجرفته الحياة بقيمها الزائفة. أما مقبل الطفل الصغير فهو رمز للجيل الجديد الذي هو وليد لتلك القيم الزائفة ؛ ولذلك هو عبارة عن مسخ وأشبه بسحلية ويرسم له سبول صورة مشوهة منفرة وهو أشبه بأبيه الذي خدعته القيم الزائفة فغرق في الحياة المزيفة ؛ ولهذا نجد الطفل لا يرضع

من أمه إنما يشرب حليبا صناعيا فهو بعيد عن الأصالة والقيم الحقيقة التي يمثلها حليب الأم.

أما غادة فاعتقدت أنها تمثل الحياة الأصيلة الجميلة التي بقيت تحافظ على جمالها واسمها يحوي بذلك رغم أن بعض الشوائب تخيم على الصورة التي رسمها لها سبول؛ لأن الحياة الجديدة بقيمها الممسوخة حاولت تدنيسها إلا أنها بقيت ذات رونق، ولذلك نجد السجين لم يتأقلم – بعد خروجه من السجن – ولم يتوافق مع أحد إلا مع غادة في البداية رسم سبول لغادة صورة جميلة إلا أن هذه الصورة كان يخيم عليها السواد" تتحرك في مجال عينيه بذلك الوهج الأسود وتتكلم بأسنان بيضاء صغيرة الفستان الأسود والشفتان حمراوان"[42].

وعندما حصل اللقاء الجنسي الحميم بينهما أصبحت الصورة أكثر جمالا البيجاما البيضاء مزينة بالزهور" انسحبت بإغماضة مبتسمة مسيرة عنقها إلى الصدر منفتحة تحت جاكيتة البيجاما البيضاء المرشومة برسوم زهور صغيرة"[43] فهو أدرك حقيقة غادة. " زنبقة سوداء مضمومة في الليل. قرنفلة منفتحة في الصباح"[44]. لهذا أجدني مختلفا في هذا الجانب مع سليمان الأزرعي الذي رأى في العلاقة الجنسية بين السجين وغادة قضية ثانية أقحمها وألح عليها سبول" أما القضية الثانية فيبدوا أنه كان من المستحسن لو توقفت القصة عندها. دون إلحاح عليها. واعتبارها قضية. فقد مارست" السيدة" الجنس مع" عبدها" وليس هذا بالوضع الطبيعي لا لأنه" عبدها" بل لأنه ليس زوجها. لكن تفاهة العلاقات الاجتماعية في ضل وضع معين تحول دون تحقيق الجنس الحقيقي من خلال العلاقات الزوجية، فتكون الخيانة بديلا لذلك. وعند هذا الحد يمكن أن تقف القصة أما أن يعود المؤلف ويعتبر هذا الوضع قضية جديدة فيشرع في فلسفته، فهذا أمر ليس في صالح القصة القصيرة من الناحية الفنية

على الأقل، لأن القصة القصيرة لا تحتمل أكثر من قضية مركزية واحدة. ونحن في" صياح الديك" أمام قضيتين لا واحدة"[45].

إن قصة" صياح الديك" لم تعالج سوى قضية واحدة والتي – تم ذكرها سابقا – وما رآه الأزرعي قضية ثانية ما هو إلا جزء من القضية الأولى والوحيدة وليس المقصود المرأة والجنس فغادة ما هي إلا صورة للحياة الحقيقية التي يحلم بها سبول وبطله، ولهذا نجد سبول يختم قصته بهذا المقطع" واستقبلته باحتفال واسع دافئ، مدارجها تموج وموسيقى خفية تصرح. أطبق كل منهما عينيه وتركا لأرجحة المياه الدافئة التي تتم هذا الطقس، أرجوحة طليقة تشرأب إلى الأعالي وكانت زرقة البحر وحشية، وكان للبحر غلاف أبيض كبير فاقبل يركض واحتواهما ونقرهما بفرح عظيم فكأن صياحه يوقظ فجر الأرض الأول. كأن الرجل متحدا بالمرأة، والمرأة متحدة بالرجل مثل فلقتي حبة قمح"[46].

إن هذا المقطع يؤكد ما ذهبت إليه من أن غادة تمثل الحياة المنشودة، وأن القضية في القصة قضية واحدة فالماء الذي فشل السجين في الحصول على درجة حرارته المناسبة للحياة نجده الآن دافئا مناسبا للحياة وأصبح البحر ديكا صياحه يؤدي وضيفته الحقيقة بالتنبيه والتبشير لفجر جديد وحبتا القمح رمز لبذرة الحياة.

ويبدوا لي أن فايز محمود يكاد يشاركني الرأي في هذا الموضوع وذلك من خلال وقفته السريعة والموجزة مع قصة"صياح الديك" يقول :" وتنشأ بتسارع، علاقة صادقة غنية متكاملة بين الزوجة وبينه. .هو لم يقصد البتة،رغم ازدرائه لصديقه الذي سقط، أن تجري الأمور على هذه الشاكلة مع الزوجة –وكذلك الزوجة، رغم ازدرائها لزوجها وحياتها" البلاستيكية" معه، لم تتقصد البتة، أن تجري الأمور على

هذا النحو. . والذي يتم من ثمان صورة الخيانة كما تتبدى مثلا في عين الصديق الساقط ومن يمثل في المجتمع – ليست أكثر من وضع الأمور في نصابها كما هي في صلب الواقع الحي والحقيقة البلجاء"[47].

يتضح مما تقدم أن نقاط الاتساق الذي تم ذكرها عند الحديث عن قصة"هندي أحمر" تكاد تكون نفسها في قصة"صياح الديك" فالقصة جاءت واقعية وتعالج مشكلات الإنسان العربي وهمومه مبتعدة عن الذاتية في الطرح، ويوظف سبول في قصته الرمز الشفاف ورمزية العالم النفسي فقد استطاع من خلال صوره التي يرسمها أن يعكس الآلام والأحزان التي تعتلج في نفس السجين، وقد وظف سبول الأحلام توظيفا دقيقا ؛لتحقيق وتجسيد المعاناة لدى بطل القصة استطاعت تحقيق الشروط الفنية التي وضعها سبول وهي العمق والواقعية والنزعة الإنسانية، وتبرز قصة" صياح الديك" قدرة وبراعة تيسير سبول في رسم الصورة المعبرة مستخدما اللغة ذات الإيحاء وانتقاء المفردات الدالة.

هذه الآراء النقدية التي استطاعت الدراسة كشفها وتبيانها والقراءة العلمية لقصة" هندي أحمر"و"صياح الديك" تثبت أن الناقد المبدع يأتي نقده نابعا من داخل التجربة الإبداعية نفسها ومعتمدا على ما لديه من عدّة الناقد والتذوق الأدبي والنقدي للبحث في الأدب من داخله ومن جوهر طبيعة الأديب" ولعل هذا النزوع إلى الجمع بين الإبداع والنقد هم عالمي لا يتميز به العرب في ماضيهم وحاضرهم عن غيرهم من البشر؛ فهو صفة غالبة في طبيعة الإبداع والمبدعين في كل زمان ومكان. ونظرة عابرة إلى قائمة كبار النقاد في الغرب تجعلنا ندرك أن هؤلاء الكبار في مجال النقد هم في الوقت ذاته كبار المبدعين. والناقد الحقيقي هناك، كما هو هنا، لا يذهب

إلى منطقة النقد الأدبي إلا وهو مسلح بحصيلة غنية من المعارف الأدبية، وبخبرة تؤهله لذلك الجهد"[48].

الإحالات:

1 . سبول تيسير،الأعمال الكاملة ،ط1 ،الكبار والصغار،دار أزمنة للنشر والتوزيع عمان، 1998،ص263.
2 . المصدر السابق ، ص 263 .
3 . المصدر السابق، ص 263.
4 . المصدر السابق، ص 263.
5 . الكبار والصغار، الأعمال الكاملة ، ص 263.
6 . فيشر،إرنست ، الاشتراكية والفن، ترجمة أسعد حليم ، دار القلم ،بيروت،ص123.
7 . الكبار والصغار، الأعمال الكاملة ، ص 263.
8 . المصدر السابق، ص 264-265.
9 . الكبار والصغار، الأعمال الكاملة ، ص 265.
10 . المصدر السابق، ص 265.
11 . المصدر السابق ، ص 265.
12 . مع نجيب محفوظ في مجموعة (تحت المظلة)، الأعمال الكاملة ،ص266.
13 . المصدر السابق، ص 266.
14 . المصدر السابق، ص 268.
15 . المصدر السابق، ص 268.
16 . النداهة مجموعة قصص الدكتور يوسف إدريس ،الأعمال الكاملة،ص272.
17 . المصدر السابق، ص 272.
18 . سبول ، تيسير ، الأعمال الكاملة ،ص67.
19 . المصدر السابق ، ص 67 .
20 . المصدر السابق، ص 68.
21 . المصدر السابق، ص 68.
22 . المصدر السابق، ص 68.
23 . الأزرعي ، سليمان ، دراسات في القصة والرواية الأردنية ،ط1 ،دار ابن رشد، عمان ،1985 ص66.
24 . رشدي،رشاد فن القصة القصيرة ، ط2، دار العودة، بيروت، 1975،ص100.
25 . انظر – الأزرعي، سليمان، الشاعر القتيل ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ،1983 ،ص 153.

– دراسات في القصة والرواية الأردنية ،ص68

26 . محمود ، فايز ، تيسير سبول العربي الغريب ،ط1،دار الكرمل ،عمان ،1984،ص70.

27 . صياح الديك ،الأعمال الكاملة ،ص75.

28 . المصدر السابق ،ص77.

29 . صياح الديك ، الأعمال الكاملة، ص78.

30. صياح الديك ، الأعمال الكاملة، ص78.

31 . المصدر السابق، ص 79.

32 . المصدر السابق، ص 81.

33 . المصدر السابق، ص 82.

34 . المصدر السابق، ص 83.

35 . محمود، فايز ،العربي الغريب،ص70.

36 . صياح الديك، الأعمال الكاملة،ص74.

37 . صياح الديك ، الاعمال الكاملة، ص70.

38 . المصدر السابق ، ص 75.

39 . المصدر السابق ، ص 75.

40 . المصدر السابق، ص 78

41 . المصدر السابق، ص 86.

42 . صياح الديك ، الأعمال الكاملة، ص76.

43 . المصدر السابق ، ص 83.

44 . المصدر السابق، ص 84.

45 . الأزرعي،دراسات في القصة والرواية الأردنية ،ص74.

46 . صياح الديك ، الأعمال الكاملة، ص99.

47 . محمود،فايز ،العربي الغريب،ص71.

48 . المقالح ،عبد العزيز ، الشعراء النقاد ، تأملات في التجربة النقدية عند صلاح عبد الصبور،أدونيس، كمال أبو ديب ، مجلة فصول ، المجلد التاسع ، العدد الثالث والرابع ،فبراير ،1991، ص 94.